أثر الصـــــوت في توجيه الدلالـــــة

الأستاذ : ابراهيم بلقاسم

جامعة عبد الحميد بن باديس– مستغانم

تتألف العملية الدلالية من عناصر أولها المرجع و آخرها الخط و بينهما المدلول المؤدّى بدال هـــو اللفظ , الذي يدل عليه الخط وفق البيان التالي(1) :

المرجع ← صورة ذهنية ← اللفظ ← الخط

فالمرجع هو ذات المدلول قائمة في الواقع و في الحقيقة بما هي عليه و المدلول هو الصورة الذهنية الحاصلة لذلك الشيء عند سماع اللفظ الموضوع سمة له.

أما اللفظ فهو المحصلة الصوتية التي تسم مدلـــــــولا ما و تحقق له وجوده في عـــالم الكـــــلام و الاتصال و التعبير, ثم يأتي الخط الحافظ للصوت بالدلالة عليه كتابة.

والمتأمل في هذه السلسلة يستصفي منها الوسطين و يقصي الطرفين بعد أن يتبين لـــه أن المرجـــع مدلول غير دال و بعكسه الخط دال غير مدلول. إذ الأول مبتدأ السلسلة و الثاني منتهاها. فهذا الأمر في العلاقة الثنائية بين { الصورة الذهنية و اللفظ } جلي من انحصار البحث الدلالي عند الفلاسفة المتقدمين كالفارابي و ابن سينا و الغزالي على الدلالة اللفظية , و هم في تعريفها يحذون حذو أرسطو فحاصـــل الدلالة عندهم اللفظة و الأثر النفسي و الأمر الخارجي(2) .

أما الكتابة فهي مستبعدة و إن كانت ذات أهمية لا تنكر من حيث تيسر وسم الأشياء على اخـــتلاف طبيعتها { غيب– شهادة} , {مادة–معنى} و على تعددها حتى داخل الصنف الواحـــد. إذ يكفـــي لتقييـــد أسمائها الدالة عليها مجموعة معدودة من الحروف ليس لها صلة بطبيعة الشيء و لا بكنهه .

و لعل الفيصل بين الكتاب و الصوت مايلي :

– الصوت أقرب إمساسا بالمدلول أي الحدث , إما في الدلالة الطبيعية أو غيرها كما سنرى بحيـــث يعكس حالة الحدث غالبا ولعل ذلك هو ما جعل علماء اللغة المحدثين و المعاصـــرين يعتـــدون باللغـــة المنطوقة دون المكتوبة في نظرة تختلف عن علماء فقه اللغة وعلماء المعـــاجم , بـــل وعـــن النـــاس جميعا.(3)

– هو ألصق و أعلق بالمدلول. إذ لا يتوسط بينهما و سيط, و هذا الجـــوار يجعـــــل الصـــــوت كالظل و كالأثر الدال على العين.

– إنه ترجمة صوتية للمدلول في اللحظة الحاضرة. حيـــث يتخاطـــب المتخاطبـــــان و يتبـــادلان المشاعـــر و الأفكار , فالتواصل حضوري أفقي بفعل الترجمة الصوتية للمدلول , و عنصر الزمن مهم

جدا في مسألة الدلالة فمازلنا إلى الآن حين نريد تحليل نص أو كلام أو التعليق عليه أو فهمه قبل ذلك تجدنا ملزمين بـــــرده إلى إطاره التاريخي باستحضار البيئة بكـل مكوناتهـا سياسـة و اجتماعا و فكرا و نفسية و بخاصة النبر و التنغيم و شاهد الحال.

أما الكتابة فهي أمس بالشكل منها بمضمون الحدث أو المدلول يدل على ذلك موقف النحاة المتقدمين من مادة الحديث النبوي حيث صدوا عنها , و أعرضوا عن الاحتجاج بها إلا في مواضع نادرة بالرغم ما ينقل عن فصاحة الرسول صلى الله عليه و سلم(4) ثم إنها وضعت لاعتبار تحسيني اقتصادي هـو إمكـان و سم الأشياء على اختلاف جواهرها و كثرة تعدادها بذات الحروف اليسيرة المعدودة . و هو ما يسهل عملية التقييد الذي هو روح الكتابة على حد قول الشاعر :

العلـم صيد و الكتـابة قيده قيد صيودك بالحبـال الواثقه
فمن الحماقة أن نصيد غزالة و نتركها بين الخلائق طالقه

و هذا يعني صلاحيتها خاصة حال الغيبة مكانا أو زمانا , فالتواصل هنا عمودي مـن جيـل إلـى جيـــل و من عصر إلى عصر لاعتباراب حضارية مثلما حدث مع تدوين القرآن الكـريم و تـدوين السنة النبويـة أو اعتبارات تعليمية تخص نقل العلوم التي يضمن بها اتساق الأجيال في نمطها الروحي أو التفكيري أو البياني , كما حدث مع علوم العربية نحوها و صرفها و بلاغتها و متونهـا المختلفـة المواضيع التي تمرر المعرفة الدينية و اللغوية إلى أبناء الأمة جيلا عن جيل ضمانا للتواصل و الوحدة .

و الحق أن الكتابة أفادت الدرس اللغوي فهي التي أتاحت نصوصا كانت هي مادة الدرس مبنـى و معنى خاصة فيما يعرف بفقه اللغة عند الغربيين ..... "(5)

نريد بهذه التقدمة تأكيد فضيلة الصوت في الدلالة, "بـل إن الوظيفة الفونولوجية للكلمـة كـتما سنرى , و خاصة في اللغات الاشتقاقية و المعربة مثل اللغة العربية قد تتصل بصـورة أو بـأخرى بوظائفها الصرفية و النحوية و الدلالية أيضا , و من ثم تصبح مشكلات النطق و الكتابة , بالإضافة إلى المقولات الصرفيـة و النحوية للكلمة , من المشكلات التي تواجه عمل المعجمي "(6) و الذي لا يمكن أن يغفل إلا لاعتبارات بحثية نذكر أهمها :

<u>أ- اعتبار تاريخي فلسفي</u> : تمتد عمر اللغة ميلادا و نشأة و تطورا إلى أحقاب سـحيقة انقطعـت بيننـا و بينها أسباب البحث لاندثار الآثار و انبتات الصلة بين المجتمعات المتوالية , الأمـر الـذي أدخل البحث في عداد المسائل الفلسفية, فقال البعض بتوفيقها و قال آخرون بتوقيفها مع توسط آخـرين ولعل القائلين بالاعتباط هم الصوت الأكثر صدى في الأوساط العلمية و لسنا ممن ننكر الاعتباط كمـا تقره طبيعة الإنسان و طبيعة الحياة التي يحياها و لكن نقبله على أساس من النظام فلا يعني الاعتبـاط بحال أن العقل مفقود ظله تماما في بحث العلاقة بين الدال و المدلول , فلو أننا سألنا أيا عن الفرق بين قطع و قطّع لقال أن الثانية أشد و أقوى , و حين يسأل يعلل بالشدة و القوة التي تسبب فيهـا الإدغـام

فالشدة صوتا تعكس الشدة حدثا.هذا مثال كثير نظيره. و سنرى بما لا يدع الشك أن هنـــاك إشـــارات متضافرة تغري بوجود نظام صوتي عجيب في اللغة العربية له أثره البالغ فـــي بنـــاء الدلالـــة و فـــي استنباطها.

ب-اعتبار منهجي : إن معظم أحكامنا العلمية المتصلة باللغة هي عبارة عن نتائج تبحث لها عـــن أسباب خلاف المنطق السليم المتصاعد من السبب إلى تحري النتيجة و إليك مثالا من الاعتبار السابق: مسألة نشأة اللغة ــ اللغة إنتاج بشري, فهي بذلك تحمل النقص الذي هو طبيعة البشر , فلا داعي بل لا ينبغي أن يبحث في العلاقة الموضوعية بين الدال و المدلول. إذ ما يسمى قلما كان من الممكن أن يسمى قمرا , و ما يسمى حجرا كان يمكن أن يسمى خبزا. كما كان جائزا أن يرفـــع المنصـــوب و ينصـــب المرفوع, و ما يسميه حرف السين كان مقدورا أن يكون راء.....

و خلاصة الأمر تسليم بنتيجة تفضي إلى القول بأحكام و قواعد لابد منها مصداقا للنظرة الأولى, ثم ما يلبث الباحث أن يجد و يجتهد في بيان نظام دقيق يسري في جسد اللغة كلها ألفاظها و أصـــواتها و حركاتها و تركيبها , يقول بلسان حاله خلاف لسان مقاله إنه لا اعتباط في اللغة ,ولعل أحسن مثال لذلك ابن جني في تردده بين التوفيق و التوقيف و في إشارته الكثيرة إلى وجود نظام محكم دقيق يدعـــــو إلى الدهشة و الحيرة معا .

و أود هنا أن أنبه إلى مسألة ذات خطر تتمثل في تكاتف الفلسفي و العقيدي مع المنهج و تفسير ذلك في قضية نشأة اللغة أن الاعتقاد بالاعتباطية قول بحرية الإنسان المطلقة التي تلغي العناية الإلهية و هو ما يدعى خلق الأفعال عند المعتزلة و أن القول بتوقيفهـــا يعني إلغاء السمة الإنسانية و الوقوع فـــي الجبرية . فما اللغة إلا نموذج من الأفعال التي تساءل عنها علماء الكلام و قبلهم الفلاسفة عن نســبتها إلى الخالق أو إلى المخلوق, فإن هم انطلقوا من كونها إنتاجا بشريا يحمل بصمات صاحبه من ضعف و حاجة قدروها اعتباطية و إن هم تملوا ما فيها من أحكام و اتساق أدى بهم إلى استنباط القواعد قالوا أنها توقيف من الله.

و معلوم أن الخوض في المسائل الفلسفية يقود إلى مناقشات لا تمس اللغة وحدهـــا بـــل تمـــس الفكر و العقيدة و التاريخ معا. لذلك نفضل منهجا واقعيا في التعامل مع الظاهرة ينطلـــق مـــن واقـــع الظاهرة ووصفها علميا و يرقى إلى إقرار أحكام في خاتمة المطاف وإن لم يكن ذلك مما يعنيه أو يعنّيه

مجـــالي الأثر الدلالي للأصوات

في البدء تحسن الإشارة إلى أن المستويين الصرفي و الصوتي يجمعهما نسب قريب و اتصـــال شديد من حيث أن كليهما يهدف إلى إحداث التغيير على بنية الكلمة حسبما تحتمله من وجوه. (7) ومن هنا ارتأيت الجمع بينهما محاولا التدرج من المستوى الصوتي إلى المستـــوى الصرفي, ولو أن فكاكهما

و استقلال أحدهما عن الآخر مما يتعسر, إذ النظر في أصل المادة اللفظية وزيادتها وتقلبها أمر صرفي لكن ذلك ملابس دائما للصورة السمعية (الصوت).

و رغم أنني أحاول أن أكشف عن جهود رجال الاعترال في هذا المجال دون تمييز إلا أنني أجد نفسي مضطرا للتوقف طويلا عند عمل ابن جني في هدا المجال, إذ ما جاء عند غيره يعد مجرد لمحات لا تتعدى الوصفية في أغلب الأحوال, و يعترف له بعض الباحثين "بأنه حاز على شرف السبق إلى مثل هذا التحليل متقدما بذلك جميع علماء اللغة المحدثين"(8).

(1)المستوى الصوتي:

و المقصود به ما ينجم من تغيرات دلالية تابعة للتغيرات الطارئة على الصوت "phonème". سواء تعلق ذلك بالفونيم القطعي segmental أو بالفوقطعي suprasegmental و يخص الأول الصوامت و الصوائت, أنا الثاني فيتعلق بالنبر و الأنغام و الفواصل. (9)

ـ الفونيم القطعي:

-أ-إبدال الصوائت: أن تغاير الحركات على الصامت يفضي إلى التغاير في دلالة اللفظ نسبيا, أي من جهة النوعية, فكلمة الذل" بضم الذال" يوصف بها الإنسان أما الذل" بكسر الذال" فوصف للدابة لأن ذل الإنسان أشد وطأة من حيث أنه لا يشاؤه, و لا يرضاه, فاختاروا له الضم لأنه أقوى, واختاروا الحركة الأخف حيث الذل أخف و قعا. (10)

و إذا كان هذا التعليل نفسيا, فإن الزمخشري يقترح تفسيرا آخر مفاده أن اختلاف الحركتين على المحل الواحد قد يرد للتفريق بين جنسين. مثال ذلك قوله" القبطية ثياب بيض من كتان تنسج بمصر نسبت إلى القبط(بالضم) فرقا بين الثياب و الأناسي. و الجمع القباطي"(11)

و يقدم ابن جني في باب الإدغام الأصغر تعليلا صوتيا محضا لتبادل الصوائت , و من ذلك تقريب الصوت من الصوت مع حروف الحلق نحو: شعير و بعير و رغيف(12), و علة هذا الإبدال هي الاستثقال الناجم عن الانتقال من الفتح إلى الكسر مع فخامة الحروف الحلقية, فجر ما قبلها يؤدي إلى الخفة.

ب-دلالة الصوامت: ينفرد ابن جني بقوله إن في الصامت الذي هو جزء من اللفظ شبها بجزء من المدلول ذاته, و يمثل هدا الاعتقاد ذروة ما بلغه ابن جني في إثبات الشبه بين الصوامت و الأحداث. فهو يرى مثلا أن كلمة "بحث" تدل بكل جزء منها على جزء من الحدث, فالباء لغلظها تشبه بصوتها خفقة الكف على الأرض, و الحاء لصحلها تشبه مخالب الأسد و براثن الذئب إذا غارت في الأرض و الثاء للنفث و البث للتراب(13), ومثال آخر شد الحبل, فالشين بما فيها من التفشي تشبه بالصوت أول انجذاب الحبل قبل استحكام العقد, ثم يليه إحكام الشد و الجذب و تأريب العقد, فيعبر عنه بالذال

التي هي أقوى من الشين, لاسيما و هي مدغمة, فهو أقوى لصنعتها,و أدل على المعنى الذي أريد بها"(14).

و قد التفت حسن عباس من المحدثين إلى خصائص الحروف العربية و معانيها , فألف فيها كتابا بهذا العنوان . و هو يقصد بالحروف الأصوات مشيرا إلى إيحاءاتها الحسية و الشعورية مصنفا إياها ما بين بصرية و سمعية و شعورية غير حلقية و شعورية حلقية مضيفا في الفصل الرابع الشعور كحاسة سادسة , و يذكر مقدما أنه خلاف ابن جني يستهدف ما يوحي به الصوت بغض النظر عن سلسلته التركيبية , فابن جني في نظره لجأ إلى استخلاص معاني الحروف العربية من معاني الألفاظ بدلا من الاتجاه مباشرة إلى تأمل صدى أصواتها في الوجدان ... فلقد ضرب ابن جني لتحديد معاني الحروف و خصائصها الأمثلة التالية:

القاف فيه صلابة و في الخاء رخاوة, هذا صحيح إلى أنه يعود فيقول : الحاء فيه رقة و في الخاء غلظة فقيل للماء القليل نضح بمعنى رشح , و نضخ للماء الغزير بمعنى اشتد فورانه في ينبوعه. فكيف يجتمع في حرف (الخاء) خاصيتا الرخاوة و الغلظة و هما متناقضتان؟.(15).

و من إجراءاته العملية التطبيقية في المعجم الوسيط الصادر عن مجمع اللغة العربية بالقاهرة يذكر أنه عثر على مائة مصدر تبدأ بالتاء مما هو غير مولد أو معرب أو دخيل أو محدث أو عامي ... كان منها ثمانية عشر مصدرا تدل معانيه على الرقة و الضعف و التفاهة بما يحاكي الرقة و الضعف في صوت التاء, منها:تبتب(شاخ). التبن(القش اليابس).تخ العجين (لان و استرخى).التراب.ترف النبات(كثر ماؤه و نضر). تره(وقع في الترهات).تفتف(اتسخ بعد نظافة). التف(وسخ الظفر). تفه(قل و خس و حقر). تك الرجل (حمق). التلب(الخسار). تلف(هلك).تاع الجمد(ذاب وسال). تام الحب فلانا(استعبده و ذهب بعقله). (16).

و في إجراء تحليلي صوتي لسورة الرعد و بعد توصيف لمخرج اللام و بيان صفاته يقرر الدكتور عمار ساسي أن هذا الصوت " يحمل دلالة الاستعلاء و العلو التي هي نواة خطاب سورة الرعد التي منها القوة و العظمة." (17).

و يلي هذه الرتبة قوله- أي ابن جني- بأن تقارب كلمتين في حرف أو حرفين أو ثلاثة يعني تقارب الدلالة أينما كان موقع ذلك الحرف التقارب فيه أولا أو وسطا أو آخر.

*التقارب في حرف واحد:

-أز-هز(ء.ه) تقارب في الفاء

-جرف-جلم(ر.ل) تقارب في العين, و معناه: الميل.

-علم-علب(18) (م.ب) تقارب في اللام و معناه: الشق

*مقاربة حرفين لحرفين(19):

-سحل-صهل-(س,ص)(ح,ه) الفاء و العين:صوت

-جلف-جرم-(ل, ر)(ف, م) العين و اللام: القشر و القطع
-صال-سار-(ص,س)(ل,ر) الفاء و اللام

*مقاربة ثلاثة أحرف لثلاثة(20)

ـسلب ــ صرف (س,ص)(ل,ر)(ب,ف)

ـ غدر ــ ختل (غ.خ)(د.ت)(ر.ل)

ـ زأر ــ سعل (ز.س)(ء.ع)(ر.ل)

عند هذا الحد يتوقف المستوى الصوتي في شكله البسيط لنراه شكلا مركبا و أكثر تعقيدا و نعني به "الاشتقاق" وقبل أن نفصل القول في الاشتقاق الأكبر نشير إلى اشتقاق من نوع خاص يصدق على حروف تجمعها خصائص صوتية مشتركة إذ يكفي اجتماع حرفين منها لتؤدي دلالة واحدة بجميع تقلبات الكلمة المكونة من هذين الحرفين المتشابهين بالإضافة إلى حرف آخر خارج المجموعة, فازدحام الدال والتاء والطاء والراء و اللام والنون إذا مازجتهن الفاء على التقديم والتأخير فأكثر أحوالها ومجموع معانيها أنها للوهن والضعف ونحوهما. (21) وبعملية حسابية بسيطة نحصل على 150(مائة وخمسين) كلمة لها معنى الضعف والوهن. هذا بغض النظر عن تقلباتها الصرفية وإلحاقها بحرف الزيادة. والعملية كما يلي:

ر × ر = 3 × 5 × 6 = 90 كلمة

وقد قدم ابن جني من جملتها أربعة وعشرين لفظا على وجه التمثيل منها: الدالف: للشيخ الضعيف, و الطنف: لما أشرف خارجا عن البناء و هو إلى الضعف, و الدنف: المريض و الطرف: لأنه ليس فيه قوة الوسط, و لذلك قال الله تعالى:"أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها" و قال الطائي الكبير:

كانت هي الوسط الممنوع فاستلبت ما حولها الخيل حتى أصبحت طرفا.

و منه الفرد: لأن المنفرد عرضة للهلاك, و منها الفرات: الماء العذب لأنه ينال منه, و يمال عليه قال الشاعر:

ممقر مرّ على أعدائه و على الأدنين حلو كالعسل.

و كذلك الفتور: أي الضعف, و الرفت:الكسر.....الخ. (22)

و فكرة تشابه الدلالات لتشابه الحروف, و مشابهة الصامت للحدث يتعرض لها الزمخشري في فائقه بشكل بارز, لكن يكتفي بالوصف دون تحليل. فالعشنّق و العشنّط أخوان بمعنى:الطويل(23) و كذلك تلعثم تلعذم(24), و حذا و حثا, و القاحة و الباحة و الساحة أخوات(25), و مثلها البرى و الثرى. (26)

أما الجاحظ فيشير إلى أثر الشبه بين الصامت و الحدث حين يرى أن الحن هو ضعفة الجن فهذا مؤداه ــ و إن لم يحلله ــ أن ضعف الحاء في مقابل الجيم هو الذي سوغ هذا الفهم. (27)

ج) <u>الاشتقاق الأكبر و الدلالة المركزية</u>: يعود الفضل في استقراء هذا الاشتقاق و تسميته بـ"الأكبر" إلى ابن جني الذي يصرح بذلك مع اعترافه لشيخه أبي علي بالاستعانة به, و الإخلاد إليه يقول: " أنما كان يعتاده عند الضرورة و يستروح إليه, و يتعلل به. و إنما هذا التقليب لنا نحن"(28)

و حدّه أن تأخذ أصلا من الأصول الثلاثية فتعقد عليه و على تقاليبه الستة معنى واحد تجتمع التراكيب الستة و ما يتصرف من كل واحد منها عليه. (29)

و مثال ذلك الأصل(ج ب ر) فهو يدل بجميع تقلباته على القوة و الشدة و منه جبر العظم إذا قويته و الجبر الملك لقوته و تقويته لغيره, و كذلك البجر: لمن جرسته الأمور و نجذته, ومنه الجراب لحفظه ما يوضع فيه, و الحفظ سبب القوة.

و منه الأبجر و البجرة و هي القوي السرة, و عليه قوله صلى الله عليه و سلم:" إلى الله أشكو عجري و بجري" أي همومي و أحزاني, و العجرة كل عقدة في الجسد, فإذا كانت في البطن و السرة فهي البجرة, و منه البرج لقوته في نفسه و ما يليه, و كذلك البرج: لنقاء بياض العين و صفاء سوادها و منه الترجيب أي التعظيم و لذلك سمي الشهر"رجب" لتعظيمهم إياه عن القتال فيه و ما يسند النخلة و يقيمها يسمى"الرجبة", و الراجبة أحد فصوص الأصابع لأنها مقوية لها و منها الرباجي و هو الرجل يفخر بأكثر مما يفعل.

قال الشاعر:

وتلقاه رباجيا فخورا (30)

ويختم صاحب الخصائص هذا الباب بتحفظ صريح العبارة يقول فيه:"و اعلم أنا لا ندعي أن هذا مستمر في جميع اللغة "كما لا داعي للاشتقاق الأصغر أنه في جميع اللغة. (31) ومع هذا نجد إبراهيم أنيس يذهب إلى ما يوهم الإطلاق, حيث يرى هؤلاء الاشتقاقيين(ابن فارس وابن جني و أضرا بهم) تأثروا بالعمل الخليلي في العين مع أن تقسيمات الخليل كانت صورية فقط, و يعقب على كل ذلك بإنكاره لوجود الصلة الطبيعية بين اللفظ والمعنى محتجا بأن الكلمات لا تعدو أن تكون رموزا شأنها شأن الرموز غير الصوتية الأخرى كالإشارات, إضافة إلى أن جهاز النطق يضطلع بالنطق كعمل ثانوي, أما عمله الأصلي فهو البلع و المضغ و التنفس. (32)

وهذه في نظري اعتراضات غير مقنعة, فإشارات المرور مثلا وضعت بعد تصور موضوعي ربط فيه الدال والمدلول, و لا يعقل أن توضع بعفوية ساذجة مغفلة لأن مثل هذا الموضع يعني تعدد الفهوم لهذه الإشارات, إذ ليس أحدها أولى من غيره من حيث أنها جميعا خالية من الصلة الموضوعية. فاللون الأحمر لا يصلح أن يكون رمزا للنماء والخصب مثل ما هو الحال مع اللون الأخضر, و هذه

الدلالة منتزعة من تجارب الحياة, فخضرة النبات تعني حياته وقابليته للنمو, أما الحمرة فدلالة الخطر لما فيها من صفة الدم و النار المنذرة بالخراب و الفناء .

والواضح أن مسألة نشأة اللغة هي التيار الذي بلغ تأثيره إلى حد إنكار هذه المسائل, إذ التسليم بها يعادل, أو يحث على القول بتوقيفية اللغة, و هو ما يأباه الكاتب و لا يسلم به.

و لم يكن ابن جني المعتزلي الوحيد الذي أشار إلى هذه المحورية الدلالية, فالزمخشري يرى أن الحمد و المدح أخوان, كما يقول بأن نثد و ثدن و دثن بمعنى واحد هو الركود والثبات يقال: نثدت الكمأة و نثطت إذا نبتت و الثبات من باب واحد, و ثدن الرجل إذا كثر لحمه, فهو ثادن أي قليل الحركة, دثن الطائر في الشجرة إذا عشش فيها و أقام. (33) و الزمخشري يذهب إلى أبعد من ذلك عند حديثه عن الفعل "خنز" الوارد في الخبز:"لولا بنو إسرائيل ما خنز الطعم و أنتن اللحم كانوا يرفعون طعام يومهم لغدهم", يقول:"خنز قلب خزن إذا أروح و تغير, و هو من الخزن بمعنى الادخار ولأنه سبب تغيره, ألا ترى في قول طرفة:

ثم لا يخزن فينا لحمنا *** إنما يخزن لحم المدخر.

و يحتمل أن يكونا أصلين, و منه الخنزوانة, وهي الكبر لأنها تغير عن السمت الصالح".(34) ومثل هذا إن أطرد كان من أعجب أسرار العربية و نظامها البديع, كان مدعاة إلى إعادة النظر في قضايا نظرية لغوية هامة مثل نشأة اللغة و علاقة اللفظ بالمعنى.

و لا يقبل ابن جني أن تكون هذه الظاهرة عارضة عابرة, إنما يجعلها في اللغة عامة و متفشية سارية من غير قول بالاتفاق أو الصدفة لأن الحكمة الإلهية هي التي اقتضت ذلك,و إذا نحن عجزنا عن تطبيقها فعليا فإما لعجزنا و جهلنا للغة, و إما لأن بعض اللغة لم يصل إلينا, و يتكئ على قول سيبويه:"لأن الأول وصل إليه علم لم يصل إلى الآخر"

و يدعم هذه القناعة بالاستدلال بتسمية العرب للأشياء بأصواتها مثل : الخازبار و هو الذباب " لصوته" و البط و الخاقباق (صوت الفرج) و الواق للصرد لصوته و غاق للغراب , و الشيب صوت مشافر الإبل , و الهيقم (صوت اضطراب البحر) كما أن العرب تتنادى بالأصوات فيقولون : حاحيت و عاعيت و هاهيت إذا قلت : حاء و عاءوهاء ,وكذا تسميتهم الحوقلة و البسملة و الهيللة. (35)

و إن كان ابن جني بحكم تمرسه باللغة و جودة اطلاعه عليها و معرفته بها يجزم يقينا بأن هذا النظام يسري فيها جميعا حتى الجزء الذي لم يصلنا, و الجزء الذي وصلنا و لم نحسن التطبيق عليه, فإن تلك قناعته التي رسختها فيه هذه اللغة الساحرة بمرونتها و طواعيتها و اتساقها , و تلك أيضا منهجيته العقلية الصارمة في البحث , لكن الأمر يختلف بالنسبة لغيره سيما المحدثين , إذ يرون هذا التقدير مردودا لأن قيمة الرمز اللغوي (الكلمة) الدلالية عرفية باتفاق اجتماعي متتابع , ولا نستطيع أن ننسب قدرة دالة إلى كل حرف يؤلف هذه الكلمة. ذلك أن العبقرية العربية تجلت في النضج الأبجدي

في أوغاريت, إذ غدت الحروف (الأصوات) التسعة و العشرون أدوات مجردة تدخل في تركيبات صرفية كثيرة, و منذ القرن الثاني استقر هذا النهج اللغوي. (36)

و هكذا يجد الباحث نفسه مجبرا على إعادة النظر في قصة النشأة . و النشأة تمثل فلسفة اللغة لا ريب في ذلك , لكن ما الذي يحول بين أن تكون اللغة وضعية و البنى اللفظية تعكس صوتيا تلك الدلالات العرفية؟

إن الذين يرفضون هذه الاقتراحات التي يدعمها التطبيق باطراد مخطئون من حيث يعتقدون أن الوضع يلابسه الارتجال, و أن القول بوجود نظام دقيق على هدا النحو يسلمهم-كارهين-إلى القول بتوقيف اللغة حتى كأن الوضع و النظام لا يلتقيان. و العجيب أنهم يسلمون بوجود الاتساق و النظام في كثير من العلوم كالنحو و العروض محتجين بالسليقة و صفائها لدى الأوائل, فما بالهم لا يقولون مثل ذلك ههنا؟..

و الذي استغربه من صاحب الخصائص أن يعقد بابا في تلاقي المعاني على اختلاف الأصول و المباني, و يمثل لذلك بالخلق و الخلق و دلالتهما المتلازمة, و كذلك ما جاء على وزن فعيلة مثل الطبيعة و النحيتة و الغريزة و النقيبة و الضريبة و النحيزة و السجية, فهذه البنى على اختلافها, تؤدي دلالة واحدة هي الصفة الملازمة لصاحبها و الثابتة(37) فكيف يوفق ابن جني إذا بين مقالته هذه و قوله أن المباني لها شبه قريب بالمعنى, بل يذهب إلى أن الصامت الواحد يستقل بالدلالة على جزء من المعنى العام؟

و الظاهر أن الجمع بين القولين متعذر, سيما و أن ابن جني ألح على أن المشابهة بين المبنى و المعنى مطردة في اللسان العربي كله, و إن كان هناك إمكان للتوفيق فإنه لم يذكر مسوغه, و يبقى هذا تناقضا ينفي مصداقية القولين معا إن لم يقم قول ثالث ينهض كالقيد أو الاستثناء.

و أعتقد أن هذا من تسامح ابن جني, إذ يقبل بالترادف استعمالا لوجود التقارب لا التطابق لأن المقصود هو المعنى.إذ المعاني أشرف من الألفاظ, لذلك سامحت العرب نفوسها في العبارة عنها(38), و إذا جاز أن يكون في أصول هذه اللغة المقررة اختلاف اللفظين و المعنى واحد كان اختلاف المباني غير مؤثر إن تحقق المقصود وهو المعنى(39), و هذا إن كان شاهدا على واقعية ابن جني في اعترافه بتقارب دلالات المباني على اختلافها فإن المنهج الاعتزالي يفترض فيه الصرامة العقلية و العلمية التي توجب أن لا يكون للفظ الواحد إلا معنى واحد و العكس يصح.

<u>موانع الإفادة من الظواهر الصوتية في بناء المعاجم و استنباط الدلالة</u>

إنني أدرك جيدا تبعات هذا الاعتقاد الرابط بين الصوت و الدلالة ربطا موضوعيا , و أعرف أنه يمضي قدما , فتصادفه ظواهر لغوية مؤصلة و مقعدة مثل المشترك اللفظي و المتضاد و المترادف و ما إليها, ويعود خلفا , فتجابهه مسألة نشأة اللغة بطابعها الفلسفي, بل يرتمي في أحضان البحث الديني الذي ارتبط بالدرس اللغوي عبر مساره تأصيلا و تفسيرا و إنتاجا.

و لكنني ألقي العبء أول ما ألقيه على المعجم. إذ هو المشرع الدلالي لبقيـــة الحقول لغة ودينـــا. فاللغـــوي و رجل الدين كلاهما يستفتيان المعجم في دلالة المفردة لأنه الوحيد الذي يمكنه أن يسعفهما بالمادة اللغوية السليمة و المؤسسة لغويا لتنشيط فكرهما بموضوعية تتفق و البحث العلمـــي غيـــر أن الملاحظ على المعاجم غالبا ما يلي:

1- تغليب الجمع على التمحيص و التصنيف : لأن الغاية هي الحفظ الذي يحقق التواصل الأممي , و يتيح فهم و تدارس كتاب الله و ديمومة سلامة اللسان. ولأن هذه الغايات النبيلة هي المتوخـــاة فـــإن المعجمي ينشغل أول ما ينشغل بمحاولة الإحاطة بالمادة اللغوية و قتلها إلماما. ففي لسان العرب و في المقاييس و في التهذيب يسرد جميع ما قيل عن اللفظة و حولها من إفادة للمعنى , و هذا أمر ذو بـــال سيما في الأدوار الأولى من الظاهرة المعرفية لكن ينبغي فيما بعد تناول هذا الكم الهائل بالتصنيف وفق معيار لغوي معين نظير ما فعله صاحب فقه اللغة و أسرار العربية , و ما فعله أبو هلال العسكري في فروقه من بيان للبون الدلالي لما يتوهم أنه مترادف , و على شاكلة العمل الجليل الذي قدمه الخليل في (العين) من تصنيف صوتي لمادة المعجم جميعها.

2- متابعة الأحكام المعرفية:المعجمي إنسان له انتماؤه و هواه في مسائل الفكر و الإيديولوجية, و له إلى ذلك محيط قاهر قد يملي عليه كما أملى و يملي على أهل البحث قبله و بعده , و لكنه و هو أخطرهم جميعا قد يكون أريبا لبيبا يتخلص من كل هذا العنت و الحرج بأن يظل داخل الدائرة اللغوية المعجمية , فهو يستفتي اللغة باللغة لا غير . أما أن يقدم المفردة بالدلالة الفلانيـــة عمـــلا بمـــا قـــال الأشاعرة أو يرفضها مناهضة لما ذهب إليه المعتزلة فتلك مفسدة الموضوعية و قالبة المنهج العلمـــي الذي يباشر صاحبه البحث بوسائـــــل و أدوات , و يلاحظ , و يفترض و يستصفي و يقصـــي علـــى هدى من واقع البحث . أما الدخول بمعاني مسبقة و نتائج مبيتة فهو نقض للبحث و قتل له في بدايته , و إليك مثالا لذلك كيف ينحاز صاحب اللسان إلى خصوم المعتزلة من الأشاعرة و غيرهم وهو يقدم لنا دلالة الفعلين رأى و خلق مثلا ذلك أنهما يتعلقان بمسألتين عقيديتين كلاميتين هما رؤية الله يوم القيامة و مسألة خلق القرآن و كذا خلق الأفعال.

يمكننا أن نضيف إلى هذا المثال سائر الأحكام نحوية و صرفية و بلاغيـــة و فقهيـــة و عقيديـــة , فجميعها نتائج معرفية لا ينبغي أن تفرض قسرا على الدلالة.

ثبت الإحـــــــالات

(1) د. عادل فاخوري:علم الدلالة عند العرب- دراسة مقارنة مع السيمساء الحديثة- ص8.

(2) د. عادل فاخوري :علم الدلالة عند العرب- دراسة مقارنة مع السيمساء الحديثة- ص7.

(3) د. حلمي خليل: مقدمة لدراسة التراث المعجمي العربي- ص34.

(4)د. محمد خير الحلواني:أصول النحو العربي- ص49.

(5) د. حلمي خليل: مقدمة لدراسة التراث المعجمي العربي- ص34.

(6) د. حلمي خليل د. حلمي خليل: مقدمة لدراسة التراث المعجمي العربي– ص32.

(7) د.عبد العزيز عتيق: مدخل إلى علم الصرف– ص9.

(8)محمد بوعمامة: علم الدلالة بين التراث و علم اللغة الحديث– ص85.

209.)AL Khuli(MA) :a dictionnary of theoritical linguistics-P9(

(10)ابن جني: المحتسب–18/2.

(11)الزمخشري: الفائق في غريب الحديث –65/3.

(12)ابن جني: الخصائص– 143/3.

(14)و(13)المصدر نفسه –163/2.

(15) د.حسن عباس: خصائص الحروف العربية و معانيها – ص21.

(16) د. حسن عباس: خصائص الحروف العربية و معانيها – ص31.

(17) د.عمار ساسي:اللسان العربي وقضايا العصر – ص124و125.

(18)المصدر نفسه –146/2.

(19)المصدر نفسه –150,149/2.

(20)المصدر نفسه –150,149/2.

(21)المصدر نفسه –166/2.

(22)المصدر نفسه –167,166/2.

(23)و(24)و(25)الزمخشري: الفائق في غريب الحديث–50/3,و242و234.

(26)المصدر نفسه–103/1.

(27)الجاحظ: الحيوان–291/1.

(28)ابن جني:الخصائص–133/2.

(29)المصدر نفسه–134/2.

(30)المصدر نفسه–136,135/2.

(32)المصدر نفسه–138/2.

(32)د.إبراهيم أنيس:دلالة الألفاظ– ص67وص72.

(33)الزمخشري: الفائق في غريب الحديث–84/4.

(34)المصدر نفسه–399/1.

(35)ابن جني: الخصائص–165,164/2.

(36)د.فايز الداية:علم الدلالة العربي– ص23.

(37)ابن جني: الخصائص –114/2.

(38)المصدر نفسه–466/2.

(39) المصدر نفسه – 468/2.

فهرس المصادر و المراجع

(1)- إبراهيم أنيس

* دلالة الألفاظ : مكتبة الأنجلومصرية – ط3. 1973

(2)- ابن جني(أبو الفتح عثمان ابن جني)

* الخصائص: تحقيق الأستاذ محمد علي النجار- دار لكتاب العلمي –القاهرة- ط2. 1952

* المحتسب : تحقيق علي النجدي و جماعة المجلس الأعلى للشؤون الدينية. 1386هـ

(3)- الجاحظ(أبوعثمان عمرو بن بحر)

* البيان و التبيين : مكتبة الخانجي – القاهرة – ط3. 1968

* الحيوان : دار الكتاب العربي – بيروت/لبنان .1969

* رسالة البرصان و العرجان : تحقيق د. محمد مرسي الخولي

مؤسسة الرسالة للطباعة و النشر – القاهرة – ط2. 1981

(4)- د.حسن عباس

خصائص الحروف العربية ومعانيها: منشورات اتحاد الكتاب العرب – دمشق/سوريا.1980

(5)- د.حلمي خليل

مقدمة لدراسة التراث المعجمي: دار النهضة العربية للطباعة و النشر- بيروت/لبنان ط1. 1997

(6)- زكي نجيب محمود

* مع الشعراء : دار الشروق – بيروت/لبنان – ط2. 1982

(7)- الزمخشري(أبوالقاسم جار الله محمود بن عمر)

* الفائق في غريب الحديث: تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم و علي البجاوي

دار المعرفة – بيروت/لبنان- ط2

(8)- الشريف المرتضى(علي بن الحسين الموسوي العلوي).

* أمالي المرتضى : دارالكتاب العربي – 1967

(9)- عادل فاخوري علم الدلالة عند العرب " دراسة مقارنة مع السيمياء الحديثة :- دار الطليعة للطباعة و النشر- بيروت/لبنان ط1 .1985

(10)- عبد العزيز عتيق

* مدخل إلى علم الصرف : دار النهضة العربية للطباعة و النشر- 1971

(11)- عبد القاهر الجرجاني

* دلائل الإعجاز في علم المعاني : تحقيق السيد محمد رشيد رضا.
دار المعرفة – بيروت/لبنان. 1981
(12)– علي عبد الواحد وافي
* نشأة اللغة : مكتبة غريب – مطبعة العالم العربي– القاهرة .1971
(13)– د.عمار ساسي
اللسان العربي و قضايا العصر : دار المعارف للإنتاج والتوزيع – البليدة /الجزائر.2001.
(14)– فايز الداية
* علم الدلالة العربي : ديوان المطبوعات الجامعية – الجزائر– ط1. 1988.
(15)– القاضي عبد الجبار الهمذاني
* شرح الأصول الخمسة : موفم للنشر– الجزائر.1990.
* متشابه القرآن : تحقيق عدنان محمد زرزور– دار التراث– القاهرة.
(16)– محمد بوعمامة
* علم الدلالة بين التراث و علم اللغة الحديث(رسالة دكتوراه)– جامعة قسنطينة .1995
(17)– محمد خير الحلوانيأصول النحو العربي لينوتيب مطبعة الشرق– حلب/سوريا.1979
(18)– محمود أحمد كامل.
* مفهوم العدل في تفسير المعتزلة للقرآن الكريم.
دار النهضة العربية للطباعة و النشر – بيروت/لبنان. 1983
(19)– المهدي فضل الله.
* مدخل إلى علم المنطق : دار الطليعة – بيروت/لبنان – ط4 .أكتوبر 1990.

المراجع الأجنبية

- Pierre Aubenque(1)
Le problème de l’être chez Aristote – 2edition. P.U.F- Paris
EL Khuli (M.A): a dictionary of theoretical linguistics. Librairie du Liban / Beirut – first édition. 1982